الرحلات العلمية للإمام الشافعي

د. عبد القادر إبراهيم عطية حماد
أستاذ جغرافية السياحة المساعد
قسم الجغرافيا . كلية الآداب
جامعة الأقصى – غزة

أ. ماجد محمد أبو سلامة
محاضر
جامعة القدس المفتوحة

المقدمة

إن من نعمة الله على المرء أن يحبب العلم الشرعي إلي قلبه، وييسر له سبل طلبه، ويوفقه إلى ذلك، وإنه لعلامة على إرادة الله الخير للمرء أن يجد نفسه في حلقات العلم حاضرا بروحه وجسده مستمعا ومنصتا بقلبه ووجدانه لمسألة شرعية أو استنباط فقهي، سائلا عما لم يفهمه، وأن يجد نفسه بين طلبة للعلم يتبادلون المعلومات ويتفاكرون حولها ويسهم كل بدلوه، وقد ثبت في السنة قولهﷺ:"من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين"(الدمشقي، ٢٠٠٤: ٥٧٩). كما أن من مظاهر عظمة هذا الدين أن جعل الله له أئمة يبينون للناس أمور دينهم ويستنبطون لهم الأحكام المتعلقة بشؤون دنياهم فكانوا مشاعل هداية، يرجع إليهم كل من حزبه أمر، أو نزلت به نازلة أو حيرته مشكلة، وهم من أمر الله بسؤالهم فقال:"فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون"(النحل، ٤٣) وأهل الذكر هم أهل العلم.

وقد تميزت الأمة المسلمة بثراء فقهي لا يوجد له نظير في سائر الديانات والمعتقدات والمجتمعات، ونبغ فيه نوابغ قل أن يوجد لهم نظير حتى إنه ليتضاءل أمامهم من يوصفون بعباقرة العالم –جهلا أو عصبية–، ذلك لأنهم لم يقولوا يوما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين فتاه كثير منهم في معمعات كلامية وفلسفية لو قيل بعضها اليوم لطفل في السادسة لما صدقها أو استساغها(القواسمي، ٢٠٠٣: ٨).

إن علم السيرة والتراجم له دور كبير في حياة المسلم عامة و الملتزم خاصة، ومن يقرأ القرآن الكريم يلاحظ فيه الكثير من قصص التراجم عن الأنبياء والرسل وذلك لأنّه من خلال دراسة تراجم الأنبياء والرسل والأئمة تعطي قوة للمسلم الملتزم الذي يسير في طريق الالتزام الشرعي، فبطبيعة المسلم يبحث عن قدوة يقتدي بها كالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، لذلك فنحن بحاجة لتسليط الضوء على سيرة ومنهج رجال مؤمنين ليسوا أنبياء وليسوا صحابة بل هم علماء أتقياء فضلاء قدموا للإسلام الكثير والكثير، وجهودهم أعطت للمسلم ثقة قوية بأمته وخصوصاً في هذه المرحلة الصعبة التي تمر فيها الأمة الإسلامية فيدرك المسلم أن الأمة الإسلامية أمة حيّة لن تموت، أمة ترفد البشرية على مر العصور والتاريخ برجال يحملون هذا الدين حق حمله، ونتعرف على عطائهم للإسلام(صغير، ٢٠٠٨: ٥). لقوله تعالى:"من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا"(الأحزاب ٢٣).

فالمسلم السوي صاحب القوة والالتزام قد تعتريه الغبطة لأولئك العلماء منهم الإمام الشافعي الذي سنتناوله في دراستنا هذه سيرة ومنهجاً، حيث إن طالب العلم يستفيد جداً من دراسة الرحلات العلمية للإمام الشافعي.

١ – أهمية الموضوع:

تتمثل أهمية الموضوع في أنه يركز على جانب مهم في حياة الإمام الشافعي، وهو الرحلات العلمية، حيث يستعرض البحث أهم الرحلات العلمية التي سلكها الإمام الشافعي في حياته، والقيم المستفادة من هذه الرحلات، وصولاً إلى معرفة العلوم التي ألم بها الإمام الشافعي، والتعرف على المنهج العلمي للإمام الشافعي المعتمد لدي العلماء في العصور المختلفة، مع إبراز أهمية المذهب الشافعي بين المذاهب الأخرى.

٢– منهج الدراسة:

اتبعت الدراسة المنهجين التاريخي والوصفي.

٣– حدود الدراسة:

تبدأ حدود الدراسة منذ أن شق الإمام الشافعي طريقه نحو العلم والمعرفة متنقلا بين البلدان والأمصار المختلفة حتى كون مذهبه العلمي.

٤ – الدراسات السابقة:

حظي الإمام محمد بن إدريس الشافعي بمكانة علمية بارزة بين علماء عصره، وبرز ذلك في مجموعة من المجالات نذكر منها العلمي، والأدبي، والفقهي، والاجتماعي، كما تميز بشخصية رائعة استطاعت أن تشق طريقها نحو السمو والقمة بالرغم من الصعوبات، والتحديات السياسية، والاجتماعية التي واجهها الإمام الشافعي منذ مولده مرورا برحلاته العلمية انتهاء بوفاته، ويشرفنا كثيرا أن نطرق بابا من أبواب العلم والمعرفة التي تتناول جانبا مهما من جوانب حياته تكاد تكون الدراسات السابقة فيه نادرا، ونود أن نسلط الضوء على بعض الدراسات السابقة التي تنتمي لهدف الدراسة وموضوعها مراعين الترتيب التاريخي من الأحدث إلى الأقدم على النحو التالي.

١_ دراسة الزنكي(٢٠١١):"نقد متون السُنة النبوية في تأصيلات الإمام الشافعي قراءة لعلامات الوصل بين أصول الفقه وأصول الحديث"

تبحث الدراسة منهج الشافعي في نقد متون السُنة بياناً وصفياً تحليلياً مقارناً بين أصول الفقه وأصول الحديث عند كل من أبو حنيفة ومالك.

٢_ دراسة شرف(٢٠١١):"الموسيقى الخارجية في ديوان الشافعي"

هدفت الدراسة إلى معرفة الموسيقى الخارجية في ديوان الشافعي حيث تعد الموسيقى من أبرز الأدوات التي يستخدمها الشاعر في بناء القصيدة للإمام الشافعي، ومن أول الأركان التي يجب وجودها في الكلام ليسمى شعرا، وتناول الباحث في الدراسة أقسام الموسيقى الخارجية وهي الوزن،

والقافية، وكانت الأوزان الواردة في ديوان الإمام الشافعي، وعددها(١٥) وزنا، كما تناول الروي في القافية بجميع حركاته المفتوح، والمضموم، والمكسور، والساكن، وجميع أنواعه المتواتر، المتدارك، المتراكب.

٣_ دراسة صالح (٢٠١٠):"المأثور عن الإمام الشافعي في تفسير آيات الأحكام من كتبه المطبوعة من سورة الأنعام إلى نهاية سورة الناس"

هدفت الدراسة إلى إبراز سيرة الإمام الشافعي وآثاره العلمية، والتعرف على أسباب تميز الإمام الشافعي في منهجه الفكري واللغوي في تفسير الآيات، وجمع ما تفرق من تفسير الإمام الشافعي في كتاب واحد ليسهل الانتفاع به، وإبراز أقوال الإمام الشافعي في أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وإيراد المسائل الفقهية وترجيحه للأقوال في المسائل بما يظهر له من الأدلة.

٤_ دراسة العماد(٢٠٠٨):"ما انفرد به الإمام الشافعي عن الأئمة الثلاثة في كتاب الطهارة"

هدفت الدراسة إلى استخراج الترجيحات التي رآها الإمام الشافعي في كتاب الطهارة وما أدى إليه اجتهاده كحلول شرعية في هذا الباب، كما جمع ما تفرق وجمع ما تشتت من هذه المسائل في كتبه ورسائله ليسهل على الباحث في هذا الباب تناولها والاستفادة منها.

٥_ دراسة جاسم(٢٠٠٥):"لغة الإمام الشافعيّ في مؤلفاته"

هدفت هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على الجانب اللغوي في كلام الشافعيّ، من خلال جمع المبثوث منه في بطون الكتب، فضلاً عن مؤلفاته، وهي كتاب الأم، والرسالة، وأحكام القرآن، وديوانه.

التعقيب على الدراسات السابقة:

في ضوء الدراسات السابقة يرى الباحثون أن الدراسات السابقة تناولت جوانب مختلفة تتمحور حول شخصية الإمام الشافعي وما تركه من تراث علمي كبير سواء كان ذلك في الأدب أو الشعر أو الفقه.... الخ، إلا أنه حسب علم الباحثين لم يتم التوصل إلى أية دراسة تناولت الرحلات العلمية للأمام الشافعي.

المبحث الأول

السيرة الذاتية للإمام الشافعي

نبوءة النبي ﷺ بالشافعي:

إن التفاؤل بأن الشافعي هو عالم قريش الذي بشر به الرسول الكريم صلى الله عليه وعلى آله وسلم: فما أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب السنة عن علي رضي الله عنه وفيه :((وإن علم عالم قريش يسع طباق الأرض)). وقد قال الكثير من علماء المسلمين أنّ هذا الحديث ينطبق على الإمام الشافعي فكان الإمام أحمد بن حنبل – مؤسس الفقه الحنبلي– يقول: إذا سئلت عن مسألة لا اعرف فيها خبرا قلت فيها بقول الشافعي لأنه إمام قرشي وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال عالم قريش يملأ الأرض علماً(صغير،٢٠٠٨: ٦).

في ضوء ما سبق يرى الباحثون أن بشارة النبي ﷺ تدل على علو شأن قريش ومكانتها لدى الرسول ﷺ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أشرف الناس نسبا، وأكملهم خَلْقًا وخُلُقًا، واجتمع الإمام الشافعي ﷺ والنبي ﷺ بهذا النسب، والنبي سيد البشر ومعلم البشرية، وحاله هذا هو حال جميع من كان نسبهم إلى قريش من الصحابة والأئمة.

السيرة الذاتية للإمام الشافعي:

١_ نسب الشافعي:

هو أبو عبد الله، محمد بن إدريس، بن العباس، بن عثمان، بن شافع، بن السائب، بن عبيد بن عبد يزيد، بن هاشم، بن المطلب، بن عبد مناف، جد جد النبي. وبعبد مناف التقي الشافعي بالنسب مع ابن عمه النبي العربي محمد بن عبد الله ﷺ (الدقر، ١٩٩٦: ٢٩).

وشرف نسب الإمام الشافعي جاءه من جهتين هما:

١_ الأولى كونه قرشيا؛ وهذه ميزة له لم تكن للأئمة أبي حنيفة ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل ﷺ، فهو بذلك مشمول بالحديث الذي أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال:"الناس تبع لقريش في هذا الشأن؛ مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم، والناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا".

٢_ والثانية كونه طالبياً، وفي فضل بني المطلب بن عبد مناف قال النبي ﷺ: إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد، وإنما كانت هذه المكانة لبني المطلب لما كان بينهم وبين بني هاشم من التناصر في الجاهلية وفي الإسلام"(القواسمي، ٢٠٠٣: ٣٨).

يضيف الباحثون أن شرف نسب الشافعي لم يقعده عن العمل والسعي في طلب العلم والرزق لما يتصف به من ذكاء، وجهد، فكان دائما يقوم برحلات إلى بلدان كثيرة ليستفيد من العلماء،

ويكتسب فوائد جليلة وعلوم متنوعة، تضيف إلى معرفته معرفة جديدة جعلت له مكانة كبيرة حتى بعد وفاته.

٢_ ميلاد الشافعي:

قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: لما حملت أم الشافعي به رأت في المنام كأن المشترى خرج من فرجها، حتى انقض بمصر، ثم وقع في كل بلد منه شظية، فتأول أصحاب الرؤيا أنه يخرج منها عالم، يخص علمه أهل مصر، ثم يتفرق في سائر البلدان(الجزري، ١٩٩٠: ٧٠).

أكثر الرواة على أن الشافعي _ رحمه الله _ قد ولد بغزة بالشام، وعلى ذلك اتفق رأي الجمهرة الكبرى من مؤرخي الفقهاء، وكافة طبقاتهم، ولكن وجد بجانب هذه الرواية التي قال بها هؤلاء الكثرة من يقول:"إنه ولد بعسقلان، وهي على بعد ثلاثة فراسخ من غزة، بل وجد من يتجاوز الشام إلى اليمن، فيزعم أنه ولد باليمن"، ولكن الكثرة قد علمت ما رجحت ولقد حاول بعضهم الجمع بين هذه الروايات، فذكر أن معنى ولادته أنه ولد باليمن ونشأ بعسقلان وغزة وعسقلان كلها قبائل اليمن وبطونها، وقال في ذلك ياقوت: وهذا عندي تأويل حسن إن صحت الرواية(يوسف، ٢٠١١: ٧).

اتفقت الروايات على أن الشافعي ولد سنة ١٥٠ هـ، وقد ولد في السنة التي توفي فيها أبو حنيفة شيخ فقهاء العراق، وإمام القياس، والمتفق عليه أن أباه قرشي ينتهي إلى بني المطلب أخي هاشم جد النبي ﷺ، وأم الشافعي يمنية من الأزد، وكان لها فضل في تكوينه وتنشئته(أبو زهرة، ١٩٩٦: ٤٢٤).

٣_ كنية الشافعي: أمّا كنيته، فيكنى بـ (أبي عبد الله) ولكنّ اشتهاره باسمه (محمد بن إدريس) أكثر من اشتهاره بها(جاسم، ٢٠٠٥: ٤).

٤_ أسرته:

كان له ﷺ من الأولاد أربعة: اثنان ذكور، واثنان إناث، وكان أكبرهم أبا عثمان محمدا، قاضي مدينة حلب بالشام وهو الذي قال له أحمد بن حنبل: أبوك أحد الستة الذين أدعوا لهم سحرا، وأبو الحسن بن الشافعي توفي وهو طفل رضيع بعد وفاة أبيه، وأما الإناث: ففاطمة وزينب. وأما جده"عثمان"فمعدود في التابعين، ليس له حديث كثير. وكانت أم الشافعي أزدية(الجادلي، ٢٠٠٤:٩).

يرى الباحثون في ضوء ما تقدم أن الإمام الشافعي إمام عظيم تمكن من بناء نفسه بنفسه وبمساعدة والدته هذه الأم المثابرة التي دفعت بابنها نحو العلم وحفزته على ذلك، فكانت والدته بمثابة القوة الدافعة له، تعينه دائماً وتحاول أن تحفزه من أجل أن يسعى لتلقي العلم، وتوفر له السبل التي تمكنه من هذا، فأنطلق في طريقه بكل عزم وقوة، ينهل من العلوم، حتى وصل إلى ما وصل إليه من مكانة علمية بين العلماء.

٥_ عناصر تكوين الشخصية العلمية لدى الإمام الشافعي:

إن العناصر التي يكون لها الأثر في توجيه الإنسان إلى المعرفة، ثم تحد له مقاديرها ونوعها أربعة عناصر (يوسف، ٢٠١١: ٣٣):

١_ العماد والدعامة لغيره من العناصر ومواهب الشخص واستعداداته ونزوعه.

٢_ من يصادفهم من الموجهين والشيوخ الذين يسنون له طريقا من سبل المعرفة ومناهجها، ويخطون في نفسه الخطوط التي تنطبع فيها ولا تمحى.

٣_ حياته واختباراته وتجاربه ودراساته الشخصية.

٤_ العصر الذي أظله، والبيئة الفكرية التي كنفته ولابسته وغذته

يرى الباحثون أن الإمام الشافعي رمزاً لكثير من العناصر الحياتية التي تؤدى إلى النجاح والبروز والتفوق العلمي، فكل ما يمكن أن نتحدث به ويتحدث به غيرنا عن الإمام الشافعي إنما ينطلق من واقع هذا الرجل بل ربما يقصر الكلام عن أن يفيه حقه، أو أن يحيط بأبعاد منهجه وفكره وربما يكفي أن نقول أنه ما دام لهذا الإنسان ذلك الأثر بعد تلك السنين معناه أنه كان إنساناً على درجة عالية من التفوق والعظمة والتقدم، وعظمة منهجه العلمي وإنجازاته الأصولية والفقهية.

٦_ مواهب الإمام الشافعي:

لقد آتي الله الشافعي صفات رفعته في علمه وخلقه ودينه ومنزلته العلمية والاجتماعية بين معاصريه ومنها:

١_ قويا في إدراكه العلمي، كان ذا ذاكرة واعية حافظة يقرأ الموطأ فيحفظه ثم يقرؤه عن ظهر قلب كما روى حتى انه قبل أن يلتقي بمالك كان قد حفظ الموطأ وكان مع الذاكرة الواعية الحافظة حاضر البديهة تنثال عليه المعاني انثيالا في وقت الحاجة إليها كان عميق الفكرة لا يكتفي من المسائل بدراسة ظاهرها بل يذهب إلى أعمق أغوارها كان بعيد المدى في الفهم لا يقف عند حد حتى يصل إلى الحق كاملا.

٢_ يمتاز بقوة البيان ووضوح التعبير بين الإلقاء أوتى من فصاحة لسانه وبلاغة بيانه وقوة جنانه صوتا عميق التأثير، يعبر بنبراته، كما يوضح بعباراته أنه لقي مالكاً فأراد أن يقرؤه الموطأ على بعض أصحابه فقال اقرأ صفحا فما أن قرأ الصفح، حتى رغب مالك في سماعه منه حتى آخره وذلك لما في صوته من تأثير عميق.

٣_ كان نافذ البصيرة قوى الفراسة كشيخه مالك وتلك صفة لازمة للمناظر الأريض كما هي لازمة للأستاذ المجيد إذ يلقى على تلاميذه القدر الذي يطيقونه من المعرفة، ولا يعرف ذلك إلا بفراسته فيوائم بين طاقته في الفهم وطاقته في التبيين.

٤_ مخلصا في طلب الحقائق صادق النظر في الاتجاه إلى الحق الذي لا يبتغى سواه وفي الحكمة المشرقية أن الاتجاه المخلص في طلب الحقائق يلقي في القلب بنور المعرفة ويوجد في النفس صفاء تتضح به الحقائق ويدرك به العقل ويستقيم الفكر ويجعل العبارات صادقة التصوير للمعاني الصحيحة وبذلك يكون الرأي قويما والتعبير سليما(أبو زهرة، ١٩٩٦: ٤٤١_٤٤٢).

وهذا ما أكده الإمام ابن حنبل فقال: ما أحد ممن بيده محبرة أو ورق إلا وللشافعي في رقبته منه. وكان من أحذق قريش بالرمي، يصيب من العشرة عشرة، كما برع في الشعر واللغة وأيام العرب، ثم أقبل على الفقه والحديث، وأفتى وهو ابن عشرين سنة، وكان ذكيا مفرطا له تصانيف كثيرة(الزركلي، ١٩٩٢: ٢٦).

ويرى الباحثون أن الإمام الشافعي استمد واكتسب مجموعة من الصفات الرائعة والصادقة التي أهلته لكي يصبح عالما ذو شأن وإماما صاحب فكر ومذهب استطاع أن ينشره في جميع الأمصار والبلدان وهذا بفضل الله سبحانه وتعالى ثم بفضل الشافعي رضي الله عنه ذلك الجبل الشامخ بين العلماء.

٧_ صفاته الخلقية:

كان رجلا طويلا حسن الخلق محببا إلى الناس نظيف الثياب فصيح اللسان شديد المهابة كثير الإحسان إلى الخلق وكان يستعمل الخضاب بالحمرة عملا بالسنة وكان جميل الصوت في القراءة حتى أن علماء مكة كانوا _ وهو في الثالثة عشرة من العمر_ إذا أرادوا البكاء من خشية الله اجتمعوا وقالوا: هيا بنا إلى ذلك الصبي ليسمعنا القرآن فيبكينا، فإذا جاءوا وسمعوه تساقطوا بين يديه من كثرة البكاء،وكان إذا رأى منهم ذلك أمسك عن القراءة شفقة عليهم(الشافعي، ١٩٩٥: ٦).

٨_ شيوخ الشافعي:

إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، وحاتم بن إسماعيل، وداود بن عبد الرحمن العطار، وسفيان بن عيينة، وعمرو بن أبي سلمة، والقاسم ابن عبد الله بن عمر، ومالك بن أنس، وهشام بن يوسف، ويحيي بن حسان، ويوسف بن خالد(الجزري، ١٩٩٠: ٨٥_٨٧).

٩_ تلاميذ الشافعي:

أبو عبيد القاسم بن سلام، وأحمد بن حنبل، وحرملة بن يحيي، وموسي بن أبى الجارود المكي، وعبد العزيز المكي، وحسين بن على الكرابيسي، والحسن بن محمد الزعفراني، وسليمان بن داود المهدي، ومسعود بن سهل المصري، هارون بن سعيد الأيلي، وأبو الطاهر أحمد بن عمرو ابن السرح، ويونس بن عبد الأعلى، والربيع بن سليمان المرادي، وبحر بن نصر الخولانى(الجادلي، ٢٠٠٤: ١٧_٢٠).

١٠ _ وفاته:

أخبرنا الربيع بن سليمان المصري؛ قال: حدثني أبو الليث الخفاف، قال: أخبرني العزيزي قال:"رأيت ليلة مات الشافعي في المنام كأنه يقال: مات النبي ﷺ في هذه الليلة، وكأني رأيته يغسل في مجلس عبد الرحمن الزهري في المسجد الجامع؛ وكأنه يقال لي: يخرج به بعد العصر، فأصبحت، فقيل لي: مات الشافعي؛ وقيل لي: يخرج به بعد الجمعة، فقلت: الذي رأيته في المنام، قيل لي: يخرج به بعد العصر، وكأني رأيت في النوم حين أخرج به كأن معه سرير امرأة رثة السرير، فأرسل أمير مصر أن لا يخرج به إلا بعد العصر؛ فجلس إلى بعد العصر، قال العزيزى: فشهدت جنازته، فلما صرت إلى الموضع الواسع،رأيت سريرا مثل سرير تلك المرأة الرثة السرير مع سريره"(الرازي، ٢٠٠٣: ٥٥).

ويرى الباحثين أن المتأمل في هذا الحديث والرؤية الصالحة التي تعتبر حق قد كشفها الله سبحانه تعالى للصالحين من عباده من أجل أهداف معينة، وواضحة، وكيف لا وقد يرتقي هذا الإمام في عليين مع النبيين، والصديقين، والشهداء، وهذا كلامنا ليس مجاملة ولا تدليس الحقيقة بل هي نبوءة الحبيب المصطفي ﷺ ورؤى أمه والصالحين من عباد الله وقد تعددت المراجع واتفقت في يوم وفاته ولكن تباينت في اللغة والأسلوب بين الثناء والرثاء رحمك الله يا إمامنا.

وحين دنا أجل الإمام الشافعيّ وأقعده المرض. وانقطع عن الدرس. وتهيأ للرحلة الأخيرة. دخل عليه تلميذه المزني فقال له: كيف أصبحت يا أستاذ؟ فقال: (أصبحت من الدنيا راحلاً وللإخوان مفارقاً ولسوء أفعالي ملاقياً، وعلى الله وارداً ولكأس المنية شارباً ولا. والله . ما ادري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها، أم إلى النار فأعزيها، وأحس الإمام بأنّه ملاق ربّه فأراد أن يعيش ساعاته الأخيرة بين بطولات أحد وشهدائها فيودّع الحياة الدنيا(جاسم، ٢٠٠٥: ٨).

توفي الإمام الشافعي بمصر يوم الجمعة ودفن من يومه بعد العصر آخر يوم من رجب سنة أربع ومائتين بالقرافة الصغرى، وقبره يزار، نفعنا الله به، قال الربيع: رأيت هلال شعبان وأنا منصرف من جنازته. وقال: رأيته في المنام بعد وفاته فقلت: يا أبا عبد الله، ما صنع الله بك؟ قال أجلسنى على كرسي من ذهب، ونثر علي اللؤلؤ الرطب(المزني، ١٩٨٦: ٩٧).

وفي آخر ليلة من رجب سنة ٢٠٤ هـ إذ قد مات في الرابع والخمسين من عمره، فلم يعمر كأبى حنيفة الذي عاش نحو سبعين سنة، وكشيخه مالك الذي عاش نحو ست وثمانين سنة، وقد قضي حياته في نضال وتوفي على فراشه مريضا(أبو زهرة، ١٩٩٦: ٤٣٦).

المبحث الثاني

الرحلات العلمية للإمام الشافعي

- **الشافعي وطلب العلم:**

نشأ الشافعي بين أخواله في مكة، وكانوا ينتقلون به إلى البادية أحيانا، وقد تفجرت مواهبه وهو صغير جدا فحفظ القرآن وهو ابن سبع سنوات، وحفظ موطأ مالك وهو ابن عشر سنوات، وأخذ الفقه على مسلم بن خالد الزنجي وحفظ الكثير من الشعر العربي فاجتمع له كل ذلك وظهر أثره في فصاحة عبارته وقوة بيانه وشعره فاعتبره اللغويون والنحاة مصدرا من أهم مصادرهم حتى أن ابن هشام كان يجلس إليه ويأخذ عنه. وأعلن ثعلب ما هو أكبر من ذلك وأعظم فقال إن اللغة لا توخذ عن الشافعي، وإنما يجب أن تؤخذ من الشافعي، وفرق بين هذه وتلك فالأخذ عن الشافعي يعنى أنه راويه له ومصدر من مصادر السماع فيها، أما الأخذ من الشافعي فيعنى أنه حجة فيها وأن كلامه يحتج به سواء روى عن غيره أو لم يرو(غنايم، ١٩٩٨: ١٨).

كان الاستعداد للمعالي في نفس الشافعي وجهته أمه إلى طلبها واتخاذ أسبابها عندما أرسلته من غزة إلى مكة ثم تبعته من بعد ذلك، وابتدأ بالاتجاه إلى طلب العلم وهو في كنفها بغزة فاستحفظ القرآن ولما ذهب إلى مكة اتجه إلى تلقي أحاديث رسول الله ﷺ من شيوخ الحديث وكان حريصا على كتابتها وحفظها فكان يكتبها على الخزف والجلود أحيانا ولما شدا في طلب العلم مع أنه لا يزال في صباه اتجه إلى التصفح في العربية ليبتعد عن العجمية التي أخذت تغزو اللسان العربي بسبب الاختلاط في الأعاجم في المدائن والأمصار لذا خرج إلى البادية ولزم هذيلا وهو يقول في هذا إني خرجت من مكة فلازمت هذيلا في البادية أتعلم كلامها وآخذ طبعها وكانت أفصح العرب، أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم فلما رجعت إلى مكة كنت أذكر الآداب والأخبار وحفظ أشعارها واختص شعر هذيل بالعناية حتى أن الأصمعي رواية التراث الفني للأدب الجاهلي وصدر الإسلام قال:"صححت أشعار هذيل على فتى من قريش اسمه محمد ابن إدريس"، وبالإضافة إلى هذا شهد له المحدثين في مكة في الفقه والحديث ومنهم سفيان ابن عيينه، ومسلم ابن خالد الزنجى

(أبو زهرة، ١٩٩٦: ٤٢٦).

لما ترعرع أرسلته أمه إلى الكتاب ولما لم يكن في طاقة أهله القيام بنفقات تعليمه أهمله المعلم وانصرف عنه، إلا أن هذا التقصير من المعلم كان سببا في نبوغ الصبي لأنه اجتهد أن يكون دائما وقت الدرس قريبا من المعلم وكان يستوعب بحافظته النادرة جميع ما يحفظه المعلم للصبيان حتى إذا ذهب المعلم لقضاء حاجة أخذ الشافعي يحفظ التلاميذ ما حفظه من المعلم، وبهذه الوسيلة قويت حافظة الإمام الشافعي تدريجيا، فأحبه التلاميذ والتفوا حوله ورفعوا مكانته وصاروا طوع أمره. ولما

رأى المعلم من الشافعي هذه الحال وانه يجنى من ورائه أضعاف ما كان يطمع فيه من الأجر، صرف عنه المطالبة بالمصروفات واعتبره في كتابه مجانا. فرأى أنه لا فائدة من بقائه في الكتاب فتركه ودخل المسجد الحرام وأقبل على علوم اللغة ودراستها أياما فبرع فيها كلها. وبرع في لهجات العرب بسبب تلقيه اللغة عن شتى قبائل البادية فلما حصل له من ذلك الحظ الأوفر قيل له: لو ضممت إلى ذلك، الفقه وعلوم القرآن والحديث؟ فانصرف إليها(الشافعي، ١٩٩٥: ٧).

وهذا ما أكده الشافعي بنفسه قائلاً:"كنت يتيما في حجر أمي، ولم يكن لها مال، وكان المعلم يرضي من أمي أن أخلفه إذا قام، فلما جمعت القرآن دخلت المسجد، فكنت أجالس العلماء، فأحفظ الحديث أو المسألة، وكانت دارنا في شعب الخيف، فكنت أكتب في العظم، فإذا كثر طرحته في جرة عظيمة، وكنت وأنا في الكتاب أسمع المعلم يلقن الصبي الكلمة فأحفظها، قال: وخرجت عن مكة فلزمت هذيلا بالبادية أتعلم كلامها وآخذ اللغة، وكانت أفصح العرب"(الناصري، ٢٠٠٥: ١١).

يرى الباحثون أنه لا شك أن الفقر مانع أساسي من الحصول على متطلبات الحياة وحاجات الإنسان، بل ربما يكون سبباً من أسباب سوء الخلق والدين والجهل والتخلف وكثير من مفاسد الأمور خصوصاً وأن النبي صلى الله عليه وسلم سوّى بين الكفر والفقر في الاستعاذة منهما: اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر، وفي الوقت نفسه يمكن للمرء إذا حسنت نيته وصلح عمله أن يتجاوز صعوبات الفقر ومعوقاته، بل ربما يكون له دافعاً لتغيير وضعه إلى الأفضل والمحاولة المستمرة للتغيير، وهذا ما واجهه الشافعي ولكن بحسن نيته تحدى الصعاب وصولا إلى ما يبتغى من العلم.

- **رحلات الإمام الشافعي:**

أولا: رحلاته من مكة إلى المدينة:

انتقل الشافعي إلى المدينة يطلب قراءة الموطأ على يد الإمام مالك ابن أنس إمام دار الهجرة، وأخذ معه كتاب توصية من والى مكة إلى والى المدينة ليساعده على قبول الإمام مالك له، وقد أغضب ذلك مالكا حتى قال:"العلم يطلب بالوساطة"وهناك في المدينة قرأ الشافعي الموطأ وأجاد وأخذ الفقه المالكي وظهرت ملكاته الفذة ومواهبه العظيمة، كما قرأ في هذه المرحلة القرآن الكريم على إسماعيل بن قسطنطين وقد استمر الشافعي عند مالك حتى وفاة مالك سنة ١٧٩هـ(غنايم، ١٩٩٨: ١٨).

كانت الرحلة على ما فيها من المشاق في سبيل تلقى العلم، حيث يكون التلاقي بين رواد العلم والعلماء ويحصل التبحر في العلم، فكان الإمام الشافعي ينهج هذا السبيل وأول رحلاته كانت إلى المدينة لما سمع بالإمام مالك، فسمع الموطأ وحفظه ولقي من الإمام مالك إكراما وإجلالا حتى إنه

أجلسه في مجلسه وكلفه أن يقرأ الموطأ على الناس، ويمليه عليهم، فأقام هكذا ضيفا عند الإمام مالك ثمانية أشهر(الشافعي، ١٩٩٥: ٨)

طلب الشافعي العلم بمكة على من كان فيها من الفقهاء والمحدثين، وبلغ شأنا عظيما، حتى أذن له بالفتيا مسلم بن خالد الزنجي وقال له: افت يا أبا عبد الله، فقد آن لك أن تفتى(أبو زهرة، ١٩٩٦: ١٩).

وكان يصح أن يقف الشافعي عند هذا القدر، وقد بلغ منزلة الإفتاء، ولكن همته في طلب العلم لا تقف به عند حد لأن العلم ليس له حدود وأقطار، فقد وصل إليه خبر إمام المدينة مالك ﷺ، وكان ذلك في وقت انتشر اسم مالك في الآفاق وتناقلته الركبان، وبلغ شأنا من العلم، ولكنه لم يرد أن يذهب إلى المدينة خالي الوفاض من علم مالك ﷺ، فقد استعار الموطأ من رجل بمكة، وقرأه، والروايات تقول إنه حفظه، ولعل حفظه الموطأ وقراءته كانت مضاعفة لباعث الذهاب لإمام دار الهجرة، فقد استطاع أن يستأنس منه فقه مالك ﷺ مع ما رواه من أحاديث الرسول ﷺ(يوسف، ٢٠١١: ١٤_١٥).

معرفة أصول اللغة وإتقانها والتمكن من الآداب شعراً ونثراً أدوات أساسية لانطلاقة علمية صحيحة تؤهل صاحبها للسير في طريق العلم ضمن ضوابط ومؤهلات رفيعة تمكنه من الفهم والتحليل والجدل. أدرك الشافعي هذا الأمر فبدأ يتردد منذ صغره على البادية وبقي فترة لدى قبيلة هذيل التي كانت أفصح العرب، وكان لهذا الأمر أثر في فصاحته وبلاغته فيما يكتب.

وبعد أن روى الشافعي عن مالك موطأه لزمه يتفقه عليه. ويدارسه المسائل يفتى فيها الإمام الجليل إلى أن مات سنة ١٧٩، وقد بلغ الشافعي شرخ الشباب، ويظهر أنه مع ملازمته لمالك كان يتحين الوقت بعد الآخر فيقوم برحلات في البلاد الإسلامية يستفيد فيها ما يستفيده المسافر الأريب من علم بأحوال الناس وأخبارهم، وشئون اجتماعهم. وكان يذهب إلى مكة يزور أمه ويستنصح بنصائحها، وكان فيها نبل وأدب وحسن فهم، فلم تكن ملازمته لمالك رضي الله عنه ممانعة من سفره واختياراته الشخصية (أبو زهرة، ١٩٩٦: ٢٠).

ولقد أفاد الشافعي من إقامته في المدينة فوائد غزيرة، دينية واجتماعية، عرف فيها أحوال الناس ومعاملتهم في معاشهم ومعادهم،ورأى عجائب وغرائب. فمما روى عنه في ذلك ما رواه المزني، قال: سمعت الشافعي يقول:'رأيت بالمدينة أربع عجائب: رأيت جدة لها إحدى وعشرون سنة، ورأيت رجلا فلسه القاضي في مدين نوى، ورأيت شيخا قد أتى عليه تسعون سنة، يدور نهاره حافيا راجيا على القيان يعلمهن الغناء، فإذا جاءت الصلاة صلى قاعدا، وكان بالمدينة وال وكان رجلا صالحا فقال: مالى لا أرى الناس يجتمعون على بابى كما يجتمعون على أبواب الولاة؟ فقالوا: إنك لا تضرب

أحدا، ولا تؤذى الناس، فقال: أهكذا؟ على بالإمام، فنصب بين العقابين، وجعل يضرب والإمام يقول: أعز الله الأمير إيش جرمي؟ وهو يقول: حملنا بنفسك، حتى اجتمع الناس على بابه"(الدقر، ١٩٩٦: ٨٥).

ثانيا: رحلاته بين اليمن والعراق:

صعدت روح مالك إلى بارئها، وكان محمد بن إدريس قد غدا أمل القرشيين. واتفق أن والى اليمن قدم إلى المدينة، فكلمه مصعب بن عبد الله القرشي قاضي اليمن وبعض القرشيين ليصحب الشافعي للعمل له. ورحل الشافعي معه بعد أن رهن داره وعجزت أمه عن معونته. قال"لم يكن عند أمي ما تعطيني فرهنت دارا. فلما قدمنا.. عملت له على عمل"(الجندي، ١٩٨٢: ٧٧).

تولى عملا بنجران فأقام العدل ونشر لواءه، وكان الناس في نجران كما هم في كل عصر، وفي كل بلد، يصانعون الولاة والقضاة ويتملقونهم، ليجدوا عندهم سبيلا إلى نفوسهم، ولكنهم وجدوا في الشافعي عدلا لا سبيل إلى الاستيلاء على نفسه بالمصانعة والملق، ويقول الشافعي:"وليت نجران وبها الحارث بن عبدان المدان، وموالى ثقيف وكان الوالى إذا أتاهم صانعوه فأرادوني على نحو ذلك فلم يجدوا عندى"(يوسف، ٢٠١١: ١٦).

وقد حاول ذوو النفوذ مصانعة الشافعي كما اعتادوا أن يفعلوا مع من يتولى أمورهم؛ ولكنهم لم يفلحوا، ولم يجدوا في نفسه استجابة ما لإغرائهم واستهوائهم، واتجه بكل قواه إلى إقامة العدل، وإزهاق الباطل؛ لذلك أجمعوا أمرهم وسعوا به إلى السلطان سعاية منكرة كادت تودى به لولا حفظ الله له. وهناك رواية أخرى يقول فيها الشافعي:"ثم خرجت إلى اليمن فارتفع لى بها الشأن، وكان بها وال من قبل الرشيد، وكان ظلوما غشوما، وكنت ربما آخذ على يديه وأمنعه من الظلم، فكتب الوالى إلى الخليفة يقول: إن أناسا من العلوية _ من ذرية على _ قد تحركوا، وإني أخاف أن يخرجوا، وإن ها هنا رجلا من ولد شافع المطلبي لا أمر لى معه ولا نهى. قال: فكتب إليه هارون: أن احمل هؤلاء، واحمل الشافعي معهم، فقرنت معهم. قال: فلما قدمنا على هارون الرشيد، أدخلنا عليه، وعنده محمد بن الحسن. قال: فدعا هارون بالنطع والسيف، وضربت رقاب العلوية، ثم قال محمد بن الحسن: يا أمير المؤمنين، هذا المطلبي لا يغلبنك بفصاحته، فإنه رجل لسن، فقلت: مهلا يا أمير المؤمنين، فإنك الداعي وأنا المدعو، وأنت القادر على ما تريد منى، ولست القادر على ما أريده منك. يا أمير المؤمنين، ما تقول في رجلين: أحدهما يرانى أخاه، والآخر يرانى عبده، أيهما أحب إلي؟ قال الذي يراك أخاه. قال: قلت: فذاك أنت يا أمير المؤمنين. قال: فقال لي: كيف ذاك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، إنكم ولد العباس، وهم ولد على، ونحن بنو المطلب، فأنتم ولد العباس ترونا إخوتكم، وهم يروننا عبيدهم، فسرى ما كان به"(الدقر، ١٩٩٦: ٩٣_٩٤).

كانت شهادة محمد بن الحسن الشيبانى الذي كان قاضي بغداد في ذلك الإبان، فقد كانت لأن الشافعي استأنس به لما رآه في مجلس الرشيد عند الاتهام، إذ إن العلم رحم بين أهله، فقال:"إن لى حظا من العلم، وإن القاضي محمد بن الحسن يعرف ذلك"فسأل الرشيد محمدا فقال:"له من العلم حظ كبير، وليس الذي وقع عليه من شأنه"، وجد الرشيد الذريعة في الأمر، وعدم البث السريع فيه، فقال لمحمد بن الحسن، وهو أهل ثقته: خذه إليك حتى أنظر في أمره، وانتهى النظر إلى عدم الالتفات إلى الاتهام(أبو زهرة، ١٩٩٦: ٤٣١).

قال الشافعي خرجت إلى اليمن في طلب كتب الفراسة حتى كتبتها وجمعتها. وقال: أنفقت على كتب محمد بن الحسن ستين دينارا ثم تدبرتها فوضعت إلى جنب كل مسألة حديثا(ابن الأثير، ٢٠٠٥: ٤٠).

يرى الباحثون أن التفوق العلمي ومكارم الأخلاق ومعالي الأمور قضايا كبرى في الحياة يتطلع إليها الناس ويسعون إليها وقليل منهم من يدركها ذلك أنها تحتاج إلى نفسيات خاصة تلتقي فيها الجرأة والحرص مع القوة النفسية، يساعدها العقل الرصين والنسب الرفيع، وكل هذه العناصر هامة تؤهل المرء للوصول إلى المقامات العليا.

ثالثا: رحلته إلى العراق:

ارتحل الإمام الشافعي إلى العراق طلبا للفقه الحنفي وكان ذلك سنة ١٨٤هـ بعد أن تولى القضاء باليمن فترة ثم اتهم بالتشيع وحمل إلى الخليفة في بغداد وكان ما كان من تلقيه في هذه الأثناء الفقه الحنفي على يد إمام المذهب آنذاك محمد بن الحسن الشيباني، وقد حمل عنه فقه أبى حنيفة حمل بعير أخذه معه إلى مكة، وبهذه الرحلة أتم الشافعي رحلته في طلب العلم بين مكة والمدينة والعراق فأصبح قادرا على الجلوس للإفتاء والتدريس بالمسجد الحرام(غنايم، ١٩٩٨: ١٩).

دخل الشافعي بغداد وهي تضطرب بالأفكار، وبالناس من كل الأجناس، وبالمجوس والزنادقة والشعوبيين الكارهين للإسلام، ومنهم الزرادشتيون والمانويون والمزدكيون والراوندیون والمقنعيون والخرمية. أما المسلمون فمنهم شيعة وخوارج وقدريون ومرجئة ومتكلمون ومعتزلة. ولكل فرقة فرق. وأما أهل السنة فهم الدولة وجمهور الأمة، لكنهم مذاهب شتى. وكان المسلمون يقودون العالم في العلوم الرياضية والطبيعية والاجتماعية لتتعالى في الأسماع، أسماء من أعظم الأسماء في الرياضيات العالية، والفلسفة والأدب، إلى جوار أعظم الأسماء في الفقه العالمي وأعظم الخلفاء بعد الخلفاء الراشدين. لقد كان المسلمون في النصف الثاني من القرن الثاني، طوال حياة الشافعي، يحققون معجزة أخرى في فتوح الفكر. وبهذا دخل عالم قريش بغداد كما يدخل المعدن الحر في البوتقة(الجندي، ١٩٨٢: ١٢٣).

لقد غادر الشافعي العراق وترك أثرا لا يمحى في نفوس الموافقين والمخالفين، حتى أجمعوا على الشهادة بعقله وفهمه وسرعة بديهته. قال محمد بن إسحاق الصغاني: سألت يحيى بن أكثم عن الشافعي، فقال:"كنا عند محمد بن الحسن في المناظرة كثيرا، فكان الشافعي رجلا قرشي العقل والفهم والذهن، صافى العقل والفهم والدماغ سريع الإصابة، ولو كان أمعن في الحديث لاستغنت به أمه محمد عن غيره من العلماء"(الدقر، ١٩٩٦: ١٠٧).

والشافعي في أثناء إقامته في بغداد كان يناظر العراقيين في فقههم ويعتبر نفسه تلميذا لمالك، ولم يكن قد خرج على الناس بمنها معين، ولكنه في مناظراته كان يناظر من دون محمد بن الحسن ممن هو في مثل سنه، ويستنكر أن يناظر محمدا نفسه، لأنه ينظر إليه على أنه الأستاذ له، ولكن الأستاذ يرغب في مناظرته، كما كان أبو حنيفة يناظر تلاميذه، فيقدم على ذلك في استحياء، لأنه تربي على مالك الذي كان لا يفتح باب المناظرة، وينهى عن الجدل(أبو زهرة، ١٩٩٦: ٤٣٢).

كان للشافعي وهو شاب كتابا يذكر فيه شرائط الاستدلال بالقرآن والسنة والإجماع والقياس وبيان الناسخ والمنسوخ، ومراتب العموم والخصوص، فوضع الشافعي ﷺ كتاب الرسالة فلما قرأ عبد الرحمن بن مهدي الكتاب قال:"ما أظن أن الله عز وجل خلق مثل هذا الرجل"(يوسف، ٢٠١١: ٢٧).

رابعا: رحلته إلى مصر:

صادف أن ولي المأمون على مصر، العباس بن موسي أحد رجال بني العباس فرأى الشافعي أن يرافقه في السفر من بغداد إلى مصر فخرج أهل بغداد لوداعه وفي مقدمتهم الإمام أحمد بن حنبل(الشافعي، ١٩٩٥: ١١).

أمسك الشافعي بيد ابن حنبل وقال:

لقد أصبحت نفسي تتوق إلى مصر ومن دونها أرض المهامة والفقر

ووالله لا أدرى أللعز والغنى أساق إليها أم أساق إلى القبر؟

ولقد أجاب القدر عن سؤاله، فساقه إليهما معا، فقد نال الغني، إذ فرض ذلك الوالى العربي عطاء له من سهم ذوى القربي من رسول الله ﷺ، ناله بشرف نسبه، ونال الفوز بنشر آرائه وعلمه وفقهه(أبو زهرة، ١٩٩٦: ٤٣٦).

وكان أول ما فعله الشافعي في مصر أن قام بزيارة قبر الإمام الليث بن سعد ووقف عند القبر خاشعا يردد ويقول: لله درك يا إمام لقد حزت أربع خصال لم يكملن لعالم: العلم والعمل والزهد والكرم، وأعاد الشافعي النظر في الرسالة فجدد تأليفها، كما أعاد النظر في كتابه الحجة فألف بدله كتاب الأم، وابتكر الشافعي كتبا منها: أصول الفقه وكتاب القسامة، وكتاب الجزية وكتاب أهل البغي، وأخذ العلم عن السيدة نفيسة رضي الله عنها حفيدة الحسن بن على والحسين بن على رضي

الله عنهم موئل علم ودين وتقوى، وكان الشافعي يعرف مقدارها ومكانتها فاستأذن في زيارتها فأذنت له ورحبت به وأعجبها عقله وورعه وسمع منها ما لم يكن قد وصل إليه من حديث رسول الله ﷺ وكان الشافعي جامعة علم في شتى الفنون، فكان يجلس في جامع تاج الجوامع في مصر بعد صلاة الفجر ويبدأ بالقرآن وعلومه فيأتيه علماء التفسير وعلوم القرآن الفطاحل ليتعلموا منه، فإذا انتهى تحول إلى الحديث فيأتيه علماء الحديث ليتعلموا منه وإذا فرغ انتقل إلى علوم اللغة وآدابها فيأتيه علماؤها يدرسون عنه(زيدان، ٢٠٠٤: ٢_٣).

وضع الشافعي ﷺ لنفسه نظاما في حلقات درسه، وألزم نفسه به، وهو أن يبدأ دروسه بعد صلاة الفجر في علوم القرآن، فإذا فرغ منه، انتقل إلى درس الحديث، ثم إذا فرغ منه جلس في مجلس علوم اللغة والشعر، وفي هذا يقول الشافعي ﷺ:"إنما العلم علمان: علم الدين وعلم الدنيا، فأما الذي هو علم الدين فهو الفقه، والعلم الذي للدنيا هو الطلب فلا تسكنن بلدا ليس فيه عالما يفتيك عن أمر دينك ولا طبيب ينبئك عن أمر بدنك"، وبعد انتهاء حلقات الدرس يعود الشافعي إلى داره وكان قد تعلم من أستاذه مالك أن يجبر الناس على احترام خلوته في بيته وخاصة أن تلك الخلوة لم تكن للهدوء والراحة والسكينة فقط بل كانت للتفكر فيما يشغله من مسائل فقهية وعلمية(يوسف، ٢٠١١: ٥٤).

وكأن الشافعي أحس بأنه سيموت ويقبر في مصر فبكى وبكى لفراقه أحمد بن حنبل والمودعون. وعاد ابن حنبل وهو يقول لأهل العراق: لقد كان الفقه قفلا ففتحه الله بالشافعي، ورافق الشافعي في رحلته إلى مصر كثير من تلامذته العلماء وفي مقدمتهم، الربيع بن سليمان المرادي، وعبد الله بن الزبير الحميدي، وفي ٢٨ شوال سنة ١٩٨ دخل الشافعي مصر مع العباس بن موسي عامل مصر ووالياها من قبل المأمون، فأراد العباس بن موسي أن ينزله في داره ضيفا فاعتذر الشافعي ونزل عند أخواله من الأزد اقتداء بالنبي ﷺ لما دخل المدينة المنورة حيث نزل عند أخواله من بنى النجار وفي الصباح تواكبت العلماء وتوافدت على الشافعي وفي مقدمتهم عبد الله بن الحكم، وكان من كبار علماء مصر وأعيانها وممن أملى عليهم الشافعي الموطأ في المدينة، فرآه خاضبا لحيته بالحناء عملا بالسنة طويل القامة، جهورى الصوت، كلامه حجة في اللغة، عليه دلائل الشجاعة والفراسة، فوضع بين يديه أربعة آلاف دينار.

يرى الباحثون أن عناية الإنسان بما أعطاه الله من مواهب والعمل على تنميتها له دور فعال وهام ليتسلم مراكز أو مقامات هامة في الحياة وليكون مؤثراً في المجال الذي يتقنه أي أن يكون متميزاً وبارزاً وليس مجرد مخلوق يعيش على هامش الدنيا، هذه القضية هي مطلب إسلامي أساسي على المسلم أن يعمل له. فدور المسلم هو القيادة وكونه قدوة يفيد الآخرين، إيجابياً، متقناً، يعتبر

شامة بارزة بين الناس ينظر إليه بكل احترام وتقدير، هكذا كان الإمام الشافعي رضي الله عنه، بل لم يكن تميزه عادياً، بل كان متميزاً بين متفوقين. ومبدعاً على درجة عالية من التميز والإبداع، وإلا لما كان لنوره أن يسطع بين هذه المشاعل الكبرى، وهكذا هو المسلم الحقيقي على ما أراده رسول الله ﷺ محترفاً متقناً شامة بين الناس.

- **العلوم التي ألم بها الإمام الشافعي:**

روى ابن أبى حاتم عن أبيه عن محمد بن يحيي بن حسان عن أحمد بن حنبل قال:(كانت أقضيتنا_ أصحاب الحديث _ في أيدي أصحاب أبي حنيفة ما تنزع، حتى رأينا الشافعي ﷺ، وكان أفقه الناس في كتاب الله عز وجل وفي سنة رسول الله ﷺ، ما كان يكفيه قليل الطلب في الحديث)، وقد ذكر الحافظ شيوخه الذين أخذ عنهم العلم والفقه والحديث بمكة والمدينة واليمن والعراق ومصر وقال: وكان مكثرا من الحديث، ولم يكثر من الشيوخ كعادة أهل الحديث، لإقباله على الاشتغال بالفقه، حتى حصل منه ما حصل(الأثري، ١٩٩٥: ١٣).

قال مصعب بن عبد الله الزبيري: كان الشافعي في ابتداء أمره يطلب الشعر وأيام الناس والأدب، ثم أخذ في الفقه بعد، وكان سبب أخذ الفقه: أنه كان يسير على دابة له وخلفه كاتب لأبي، فتمثل الشافعي بيت شعر، فقرعه كاتب أبي بسوط، ثم قال له: مثلك تذهب مروءته في مثل هذا، أين أنت من الفقه؟ قال: فهزه ذلك، فقصد مجالس الزنجي بن خالد وكان مفتى مكة، ثم قدم علينا فلزم مالك بن أنس(القزويني، ٢٠٠٧: ١٣).

برع الشافعي في اللغة، والشعر، وأيام العرب، ثم أقبل على الفقه والحديث وكان مفرط الذكاء أفتى وهو ابن عشرين سنة، كلامه لغة يحتج بها، لسانه ينثر الدر، عندما سئل ﷺ: كيف شهوتك للأدب؟ فقال:"أسمع بالحرف منه، ما لم أسمعه، فتود أعضائي أن لها أسماعا فتنعم به". قيل: وكيف طلبك له؟ قال:"طلب المرأة المضلة ولدها، ليس لها غيره"، تميز شعره بكثرة الحكم، وطلب العلم، والرضا بقضاء الله وقدره، وخلوه من المدح والهجاء، وقلة الصور الفنية الشعرية، يغلب على شعره الجانب المنطقي(المصطاوي، ٢٠٠٥: ٩_١٣).

قال الإمام أحمد بن حنبل:"ما أحد ممن بيده محبرة أو ورق إلا وللشافعي في رقبته منه"إن الدارس للشافعي وفقهه يمس بدراسته فقه أهل الحجاز ومناهج بحثهم لأنه تخرج على مالك إمام دار الهجرة، وشيخ الحجاز في عصره،ويمس بدراسته فقه أهل العراق، لأن درس كتبهم، واتصل بمحمد بن الحسن مدونها، وأقام بين ظهرانيهم، وجادلهم وقارعهم، والمجادل متأثر بمسلك مجادلة وطريقته وتفكيره، كالمحارب يتأثر بمسلك محاربه وخططه وتفكيره فإن عدوى الأفكار كما تصل من النصراء، تصل من الخصوم، ولقد عكف بعض الحنابلة على رد بعض الملاحدة، فلاحظوا أن بعض آراء

مخالفيهم تصل إليهم من حيث لا يشعرون عن طريق عدوى الأفكار والآراء، فهو بهذا قد أخذ من النهجين، فدراسته لنواحي الفقه الإسلامي في مجموع نواحيه، وهو يسير في أعلى مدارج النمو والكمال، وهو الذي وضع أصول الفقه، أي الأصول العامة للاستنباط(أبو زهرة، ١٩٩٦: ١١).

وقد كان الشافعي رحمه الله من أعلم الناس بمعاني القرآن والسنة، ومن أشد الناس تمسكا بهما، وكان من أحسن الناس توجها للعلم والرغبة في الخير، وكان يقول: وددت أن الناس تعلموا هذا العلم ولا ينسب إلى شيء منه أبدا فأؤجر عليه ولا يحمدوني. وكان يقول: كل ما قلته فكان من رسول الله ﷺ خلاف قولي مما صح فهو أولى ولا تقلدوني. وقال: متى رويت عن رسول الله ﷺ حديثا صحيحا ولم آخذ به فأشهدكم أن عقلي قد ذهب. وكان يقول لأحمد بن حنبل رحمه الله: أنتم أعلم بالأخبار الصحاح منا، فإذا كان خبر صحيح فأعلمني حتى أذهب إليه كوفيا أو بصريا أو شاميا، وبلغ من تمسكه بالحديث أنه أوصي بالتزام أصحابه فيقول: عليكم بأصحاب الحديث فإنهم أكثر الناس صوابا، وقال: إذا رأيت رجلا من أصحاب الحديث، فكأنما رأيت رجلا من أصحاب النبي ﷺجزاهم الله خيرا، حفظوا لنا الأصل، فلهم علينا الفضل(الكبي وآخرون، ١٩٩٤: ١٥).

يستنتج الباحثون في ضوء ما سبق أنه تتلخص العلوم التي ألم بها الشافعي هي:

١_ علوم القرآن الكريم.

٢_ علوم الحديث الشريف والسنة النبوية.

٣_ علم أصول الفقه.

٤_ علوم اللغة العربية.

٥_ الشعر المنطقي الحكيم.

- **القيم المستفادة من الرحلات العلمية للإمام الشافعي:**

جاء الإسلام العظيم معجزة فكرية خالدة تمثلت بالقرآن الكريم وببعثة الحبيب المصطفي ﷺ الذي أجمل الإسلام بالحديث الموسوعة الرائعة"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"فكان الحديث ليس شعاراً فحسب بل كان يمثل نظرية وتطبيق من جانب آخر، فلذلك يحضرنا في هذا المقام السؤال الذي وجه لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عندما سألت عن خلق الرسول ﷺ فقالت كان خلقه القرآن أي أنه كان قرآنا يمشي على الأرض متجسدا فيه منظومة القيم الإسلامية، والقدوة الحسنة للناس أجمع.

في ضوء الرحلات العلمية للإمام الشافعي تجسدت مجموعة من القيم في مواقف كثيرة من حياة الشافعي في رحلاته:

١_ **الأمانة العلمية:** تمثلت الأمانة العلمية في موقفه عندما خرج إلى البادية ولزم هذيلا وهو يقول في هذا إني خرجت من مكة فلازمت هذيلا في البادية أتعلم كلامها وآخذ طبعها وكانت أفصح العرب، أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم فلما رجعت إلى مكة كنت أذكر الآداب والأخبار وحفظ أشعارها واختص شعر هذيل بالعناية.

٢_ **الإخلاص:** تمثل ذلك في موقف الشافعي عندما اجتهد في أن يكون دائما وقت الدرس قريبا من المعلم وكان يستوعب بحافظته النادرة جميع ما يحفظه المعلم للصبيان حتى إذا ذهب المعلم لقضاء حاجة أخذ الشافعي يحفظ التلاميذ ما حفظه من المعلم، وبهذه الوسيلة قويت حافظة الإمام الشافعي تدريجيا.

٣_ **فصاحة اللسان:** ظهرت فصاحته عندما كان يكتب في العظم، فإذا كثر طرحه في جرة عظيمة، وكنت وهو في الكتاب يسمع المعلم يلقن الصبي الكلمة فيحفظها، قال محدثا عن نفسه:"وخرجت عن مكة فلزمت هذيلا بالبادية أتعلم كلامها وآخذ اللغة، وكانت أفصح العرب"

٤_ **تحمل المسؤولية:** ظهر تحمله للمسؤولية عندما طلب الشافعي العلم بمكة على من كان فيها من الفقهاء والمحدثين، وبلغ شأنا عظيما، حتى أذن له بالفتيا مسلم بن خالد الزنجي وقال له: افت يا أبا عبد الله، فقد آن لك أن تفتى.

٥_ **تقبل النصيحة:** ظهر ذلك عندما كان يذهب إلى مكة يزور أمه ويستنصح بنصائحها، وكان فيها نبل وأدب وحسن فهم، فلم تكن ملازمته لمالك رضي الله عنه ممانعة من سفره واختياراته الشخصية.

٦_ **الذكاء والفطنة ورجاحة العقل:** تبين ذلك فيما رواه عن نفسه قائلا يقول:"رأيت بالمدينة أربع عجائب: رأيت جدة لها إحدى وعشرون سنة، ورأيت رجلا فلسه القاضي في مدين نوى، ورأيت شيخا قد أتى عليه تسعون سنة، يدور نهاره حافيا راجيا على القيان يعلمهن الغناء، فإذا جاءت الصلاة صلى قاعدا، وكان بالمدينة وال وكان رجلا صالحا فقال: مالى لا أرى الناس يجتمعون على بابى كما يجتمعون على أبواب الولاة؟ فقالوا: إنك لا تضرب أحدا، ولا تؤذى الناس، فقال: أهكذا؟ على بالإمام، فنصب بين العقابين، وجعل يضرب والإمام يقول: أعز الله الأمير إيش جرمي؟ وهو يقول: حملنا بنفسك، حتى اجتمع الناس على بابه".

٧_ **الحيادية والتكيف:** تبين ذلك في موقفه عندما دخل بغداد وهي تضطرب بالأفكار، وبالناس من كل الأجناس، وبالمجوس والزنادقة والشعوبيين الكارهين للإسلام، ومنهم الزرادشتيون والمانويون والمزدكيون والراوندیون والمقنعيون والخرمية، وكان المسلمون منهم شيعة وخوارج وقدريون ومرجئة ومتكلمون ومعتزلة. وأهل السنة فهم الدولة وجمهور الأمة، لكنهم مذاهب شتى. وكان المسلمون

يقودون العالم في العلوم الرياضية والطبيعية والاجتماعية لتتعالى في الأسماع، أسماء من أعظم الأسماء في الرياضيات العالية، والفلسفة والأدب، إلى جوار أعظم الأسماء في الفقه العالمي وأعظم الخلفاء بعد الخلفاء الراشدين. لقد كان المسلمون في النصف الثاني من القرن الثاني، طوال حياة الشافعي، يحققون معجزة أخرى في فتوح الفكر. وبهذا دخل عالم قريش بغداد كما يدخل المعدن الحر في البوتقة، وغادر الشافعي العراق وترك أثرا لا يمحى في نفوس الموافقين والمخالفين، حتى أجمعوا على الشهادة بعقله وفهمه وسرعة بديهته.

٨_ **الصداقة:** تمثل ذلك في مصادقته والي المأمون على مصر، العباس بن موسي أحد رجال بني العباس فرأى الشافعي أن يرافقه في السفر من بغداد إلى مصر فخرج أهل بغداد لوداعه وفي مقدمتهم الإمام أحمد بن حنبل.

٩_ التخطيط: كان يظهر تخطيطه في وضعه لنفسه نظاما في حلقات درسه، ويلزم نفسه به، ويبدأ دروسه بعد صلاة الفجر في علوم القرآن، فإذا فرغ منها، انتقل إلى درس الحديث، ثم إذا فرغ منها جلس في مجلس علوم اللغة والشعر، وبعد انتهاءه من حلقات الدرس يعود الشافعي إلى داره وكان قد تعلم من أستاذه مالك أن يجبر الناس على احترام خلوته في بيته وخاصة أن تلك الخلوة لم تكن للهدوء والراحة والسكينة فقط بل كانت للتفكر فيما يشغله من مسائل فقهية وعلمية.

الخاتمة: النتائج والتوصيات

النتائج:

توصل الباحثون إلى النتائج التالية:

١_ استنباط مجموعة من القيم المتمثلة في شخصية الإمام الشافعي كالتخطيط وتحمل المسؤولية وتقبل النقد.

٢_ ضرورة المثابرة العلمية وتحمل الصبر والحلم في سبيل العلم للوصول إلى أعلى الدرجات وإيجاد مكانة علمية واجتماعية عالية بين المثقفين في المجتمع.

٣_ يجب على الداعية أن يتصف بصفات حميدة وأخلاق رائعة تمكنه من حب الناس له.

٤_ سعة الاطلاع والموسوعة الفكرية التي يمتلكها العلماء.

٥_ الإيمان والتقوى معياران هامان للوصول إلى رضا الله وامتلاك المعرفة والعلم.

٧_ التواضع سمة عظيمة في حياة العلماء.

التوصيات:

١_ ضرورة الاهتمام بالوقوف على حياة جميع الأئمة والعلماء لنستفيد من حياتهم، ونقتدي بهم.

٢_ الدعوة بتناول القيم التي امتلكها الأئمة والعلماء لتكون نبراسا ينير حياتنا ويضيف لنا إطلالة علمية جديدة.

المقترحات:

١_ تقديم منجزات علمية في البحث العلمي تهتم بجوانب أخرى من حياة الشافعي وغيره من الأئمة.

٢_ عمل أبحاث تهتم بالمنهج العلمي والأساليب التدريسية التربوية التي استخدمها الشافعي في رحلاته العلمية.

المصادر والمراجع

١_ القرآن الكريم

٢- _ أبو زهرة، محمد(١٩٩٦): تاريخ المذاهب الإسلامية، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة.

٣- ابن الأثير، مجد الدين(٢٠٠٥): شرح مسند الشافعي، ط١، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية، الرياض.

٤- الأثري، أبى عمير(١٩٩٥): شفاء العي، ج١، ط١، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، مصر.

٥- - الجادلي، الأمير(٢٠٠٤): مسند الإمام الشافعي، الجزء الأول، ط١، غراس للنشر والتوزيع، الكويت.

٦- الجزري، ابن الأثير(١٩٩٠): مناقب الإمام الشافعي، ط١، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، المملكة العربية السعودية.

٧- الجندي، عبد الحليم(١٩٨٢): الإمام الشافعي ناصر السنة وواضع الأصول، ط٢، دار المعارف، القاهرة.

٨- الدقر، عبد الغني(١٩٩٦): الإمام الشافعي فقيه السنة الأكبر، ط٦، دار القلم، دمشق.

٩- الدمشقي، أبى زكريا(٢٠٠٤): شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، ط١، دار الصحابة للتراث، القاهرة، مصر.

١٠- الرازي، أبي محمد(٢٠٠٣): آداب الشافعي ومناقبه، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

١١- الزركلي، خير الدين(١٩٩٢): الأعلام، ط١٠، دار العلم للملايين، بيروت.

١٢- الزنكي، نجم الدين(٢٠١١): نقد متون السُّنة النبوية في تأصيلات الإمام الشافعي قراءة لعلامات الوصل بين أصول الفقه وأصول الحديث، مجلة إسلامية المعرفة، العدد ٦٤، ص٥_٣٨.

١٣- الشافعي، محمد ابن إدريس(١٩٩٥): الأم، ط١، دار الفكر، بيروت.

١٤- الصالح، عبد الله(١٩٩٧): منهج الإمام الشافعي في الاستحسان، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية و القانونية، المجلد ١٣، العدد١، ص ٢٤٥_ ٢٥٠.

١٥- الصلاحات، سامي(٢٠٠٢): ملامح فقه القطع و الظن عند الإمام الشافعي، مجلة الشريعة و القانون (الإمارات)، العدد ١٧، ص٨٠_١٤٧.

١٦- العماد، عبد الرحمن(٢٠٠٨): ما انفرد به الإمام الشافعي عن الأئمة الثلاثة في كتاب الطهارة، رسالة ماجستير، جامعة الإيمان، الجمهورية اليمنية.

١٧- القزوينى، عبد الكريم(٢٠٠٧): مسند الشافعي، ط١، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، قطر.

١٨- القواسمي، أكرم(٢٠٠٣): المدخل إلى مذهب الإمام الشافعي ﷺ، ط١، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

١٩- الكبي، سعد الدين(١٩٩٤): وصية الإمام الشافعي، ط١، المكتب الإسلامي، دمشق.

٢٠- المصطاوي، عبد الرحمن(٢٠٠٥): ديوان الإمام الشافعي، ط٣، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٢١- الناصري، سنجر(٢٠٠٥): مسند الإمام محمد بن إدريس الشافعي، المجلد الأول، ط١، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان.

٢٢- - المزني، أبي إبراهيم(١٩٩٨): مختصر المزني في فروع الشافعية، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٢٣- بهجت، مجاهد(٢٠٠١): النصوص الشعرية المنسوبة إلى الشافعي وغيره، مجلة الأحمدية، العدد ٨، ص ٣١١_٣٦٠.

٢٤- جاسم، نافع(٢٠٠٥): لغة الإمام الشافعيّ في مؤلفاته، أُطروحة دكتوراه، كلية التربية ابن رشد، جامعة بغداد.

٢٥- حماد، نافذ(١٩٩٧): منهج الإمام الشافعي في التعامل مع الأحاديث المتعارضة، مجلة جامعة الأقصى، المجلد١، العدد١، ص٥١_ ١١١.

٢٦- زيدان، عبد الحليم(٢٠٠٤): الإمام الشافعي المصلح المتعايش والمبدع المجدد، معهد برامج التنمية الحضارية، لبنان.

٢٧- سلام، صلاح(٢٠٠٣): انتشار المذهب الشافعي في المغرب في القرنين السابع و الثامن الهجريين (١٣/ ١٤ م)، مجلة كلية الآداب (جامعة حلوان)، العدد ١٢، ص ٦٩٥_ ٧٤٦.

٢٨- شرف، أحمد(٢٠١١): الموسيقا الخارجية في ديوان الشافعي، مجلة القراءة والمعرفة، ج١، العدد ١١٢، ص٨٣_٩٩.

٢٩- صالح، سامية(٢٠١٠): المأثور عن الإمام الشافعي في التفسير من بداية سورة الأنعام إلى نهاية سورة الناس، رسالة دكتوراه، جامعة الملك سعود، الرياض.

٣٠- صغير، عبد الله(٢٠٠٨): سيرة الإمام الشافعي ومنهجيته العلمية، مكتبة صيد الفوائد.

٣١- غنايم، محمد(١٩٩٨): الرسالة للإمام الشافعي، ط١، الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة.

٣٢- يوسف، عصام(٢٠١١): الإمام الشافعي، ط١، دار مشارق للنشر والتوزيع، الجيزة.